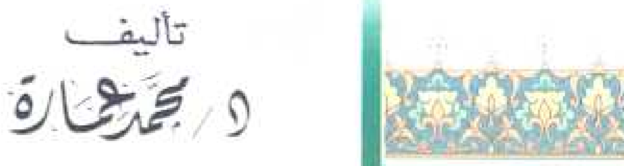
في
التنوير الإسلامي
((٤٧))

السُّنة النبويَّة
والمعرفة الإنسانيَّة

تأليف













تأليف
د. محمد عمارة





اسم الكتاب	السنة النبوية والمعرفة الإنسانية
اسم المؤلف	د . محمد عمارة
اشراف عام	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر	مايو ٢٠٠٠
رقم الإيداع	٧٧٠٧ / ٢٠٠٠ م .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1283 - 3
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ . (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦ .
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ . فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ . ص . ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ . فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ . ص . ب: ٢٠ إمبابة .

تمهيد

على مر تاريخ الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية ، نهضت السنة النبوية بدور المصدر الثاني من مصادر التشريع - إذ المصدر الأول هو القرآن الكريم . . . وبهذا الاعتبار ، حظيت السنة باهتمامات فكرية وخدمات علمية ، يسرت للأمة الاستفادة منها في هذا الميدان . . ميدان التشريع ، والفقه ، والقانون .

كذلك ، حظيت السنة النبوية بجهود علمية متميزة - وربما غير مسبوقة في الفكر الديني والحضاري لدى الأمم الأخرى - بميادين التوثيق . . والإسناد . . . والرواية . . . والجرح والتعديل للرجال الذين رووها ودونوها . حتى ليمكن للحضارة الإسلامية أن تفاخر بالمناهج والتطبيقات التي تبلورت علماً شامخاً في توثيق النصوص والمأثورات والمرويات . . وهو علم يمكن أن يتعدى حدود السنة إلى ميدان التاريخ . . . .

وإلى حد ما ، حظيت السنة النبوية بجهود علمية في ميدان «الدراية» والكشف عن علل المتن ومقارنة المرويات . . وخاصة في عرض الأحاديث على محكم القرآن الكريم . . وهي جهود تحتاج المزيد من المتابعات والإضافات . .

لكن هناك ميادين في علوم السنة النبوية ، تحتاج إلى ريادات بحثية لأنها لا تزال بكراً حتى الآن . . ومنها الكشف عن ما في

السنة النبوية من مصادر للمعرفة الإنسانية ، وخاصة في ميدان السنن والقوانين الإلهية - سنن وقوانين المجتمع الديني .. والتقدم والتراجع .. والتجديد والجمود .. والنهوض والانحطاط - .. فإسلامية المعرفة الاجتماعية والإنسانية تستلزم النظر إلى السنة النبوية بهذا الاعتبار ، وبقدر ما تتزايد حاجات أمتنا إلى فقه النهضة ، والوعي بسنن الإقلاع الحضاري ... بقدر ما تتزايد حاجات العقل المسلم كي يدرك ما في السُّنَّة النبوية من كنوز في هذه الميادين.

ولعل هذه الصفحات - التي تتناول طرفاً من مكانة السنة النبوية في المعرفة الإنسانية - أن تكون إضافة متواضعة لجهود حديثة - محدودة - ... وأن تغرى بالبحث الجاد والمعمق في هذه الميادين ..

❊ ❊ ❊

بين منهجين..

فى مناهج الفكر ، السائدة والمؤثرة فى الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة - بشقيها الليبرالى والشمولى - وبسبب من النزعة المادية فى دراسة الواقع والتاريخ وتفسيرهما ، كانت السيادة للمناهج الوضعية التجريبية أكثر من غيرها ، بل ودون غيرها فى أغلب الميادين ...

فالإنسان بنظر هذه الحضارة هو الإنسان الدنيوى ، إنسان عالم الشهادة .. إنسان ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .. وحتى عندما يتدين فإن تدينه يقف عند الطقوس ، فلا يعرف طريقه إلى تشكيل واقعه ونظرته للدنيا ومناهجه فى التفكير ...

وبسبب من سيادة هذه النزعة « الدنيوية - العلمانية » ، لم تعتمد مناهج الفكر الوضعى هذه سوى «الدنيا - العالم - المحسوس» مصدراً وحيداً للمعرفة الحقيقية والعلم الصحيح ، كما وقفت فى أدوات المعرفة عند الحواس دون سواها ، وقطعت فيما يشبه الإطلاق والتعميم ، بأن ما سوى المادة والمحسوس ، وما سوى الحواس - والعقل قوة من قواها - لا يمكن أن يثمر معرفة صادقة ولا علماً يقينياً ، وأقصى ما يبلغه هو إنتاج «الخيال» «

والميتافيزيقا» التى إن أشبعت «الوجدان» فإنها لا ترقى إلى ما تطمئن إليه « العقول »!.

ولذلك المنطلق والموقف فى المذهبية الغربية كان انفراد « المنهج التجريبى » لديها كالمنهج الوحيد القادر والصالح لأن يثمر المعارف اليقينية التى تستحق احترام المفكرين والعلماء.. فلأن أصحاب هذه النزعة قد اختزلوا عالم الإنسان إلى « عالم الشهادة » كان اختزالهم مصادر المعرفة الصحيحة إلى الظواهر المادية دون غيرها، ومن ثم اختزالهم أدوات المعرفة فى الحواس.. تلك هى النزعة السائدة والمؤثرة فى مناهج الفكر الغربى.. النزعة الوضعية لأصحاب المنهج التجريبى....

أما المذهبية الإسلامية. ذات السيادة والتأثير فى مناهج الفكر بالحضارة الإسلامية، فإن لها فى هذه القضية موقفاً آخر مغايراً.

فالإنسان فى المنظور الإسلامى ليس دنيوياً فقط، لأنه مخلوق لله الواحد، سبحانه وتعالى. وهو فى هذه الدنيا ليس موكولاً إلى واقعة المحسوس وإلى حواسه وحدهما. لأنه فيها خليفة عن الله، سبحانه، مكلف بإعمارها وفق بنود عهد وعقد الاستخلاف، وهذه الأمانة التي حملها هى الإبتلاء الذى سيحاسب عليه، بعد البعث فى يوم الدين....

إذاً ففي المنظور الإسلامى. ليست هذه الدنيا وليس عالم

الشـهادة هذا هو العالم الوحيـد الذى يؤمن بوجوده هذا الإنسـان المسلم ، فقبله كـان عـالم البدء . . وبعـده يأتى عـالم المصير . . فليست المادة والمحسوسات هي وحدها مصدر المعرفة ، لأن عالمها ليس هو العالم الوحيد فى هذا الكون وهذا الوجود . .

ولأن الإنسـان هو واحد من مخلوقـات الله ، التى تجل عن عد وحصر هذا الإنسـان . . وبسبب من مكانته الخاصة المميَّزة ، والمتميِّزة بين سائر المخلوقات ؛ كانت رعاية الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسـان ، وهى التى تتخذ العديد من الصور ، وتسلك الكثير من الطرق والأساليب . . ولما كان مصدر هذه الرعاية (الله سبحانه وتعالى) ، ليس مادة ، فلقد جعل لهذه الرعاية ، بما تتضمن من فكر وتوجيه وعلم وتعليم ، مصادر ووسائل غير تلك المادة المحسوسة التى تدركـهـا حـواس الإنسـان . . . وهنا يأتى دور الرسـالات السـماوية فى مصـادر المعرفة لدى المؤمنين بهذه الرسـالات . . فالوحى الإلهى - عبر الرسالات والرسل - هو مصدر - غير مادى للمعرفة والعلم والفكر والتوجيه - فعالم الشهادة هو أحد عوالم هذا الكون ، وليس العـالم الوحيـد فـيه . . والحواس التى يدرك بهـا الإنسان معارف عالم الشهادة ، هى حواس إنسان مخلوق ، فهى إذن محـدودة القـدرات والآفـاق ، إذا مـا قـيـست بالقـدرة المطلقة والعلم الكلى والمحيط لمن خلق هذا الإنسان ورعاه . . فإذا استقلت

(١) انظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) طبعة دار الرشاد القاهرة سنة ١٩٩٨م . وكتاب (الجديد فى المخطط الغربى تجاه المسلمين) طبعة دار الوفاء القاهرة سنة ١٩٩٧م

هذه القدرات الإنسانية بإدراك أمر فإنها لا تستقل بإدراك أمور . ولذلك فلقد مَنَّ الله ، سبحانه وتعالى ، على هذا الإنسان ، كمظهر من مظاهر رعايته له ، وبسبب من مكانته الخاصة بين المخلوقات ـ إذ هو الذى نفخ الله فى طينته من روحه ، وحمل دونها أمانة الاختيار والمسئولية والتكليف ، مَنَّ الله على هذا الإنسان بأن يسر له مصادر للمعرفة ، وسبلاً لتحصيلها تتيح له علم ما لا تُعلِّمُه إياه ظواهر المادة فى عالم الشهادة المحسوس . .

إن الله لم يكله ـ فى المعرفة ـ إلى حواسه وحدها وإلى قدراته بمفردها . . فكانت رسالات السماء مصادر للمعرفة لاتلغى المعارف المحسوسة المشاهدة ، ولا تقلل من شأن أدوات إدراكها ، وإنما تضيف إلى المعرفة الإنسانية معارف يقينية لا تثمرها المادة ولا تستقل بإدراكها الحواس ، لأنها معارف عوالم غير مادية ، وإنباءُ عن مقادير من علم هذه العوالم ، تفضل بها على هذا الإنسان عالم الغيب والشهادة ، وذلك حتى لا يظل هذا الإنسان ـ المكون من الروح والجسد بمعزل عن غذاء الروح وحبيساً للمعارف المادية دون سواها . كانت معارف هذه الرسالات السماوية :

● تأكيداً للمعارف العقلية الصادقة يُطَمئِنُ الإنسان العاقل على صدق ما وصل إليه بعقله الإنسانى ، عندما وصل ، ذاتيا إلى تحسين الحسن وتقبيح القبيح . .

● وتصحيحاً لأحكام وتصورات الحواس ـ ومنها العقل الإنسانى

ـ التى لم تصادف الحق والصواب لنسبية قدرات هذه الحواس ومحدودية آفاقها ..

● وإعانة لهذا الإنسان على معرفة وإدراك المقادير الضرورية لترشيد مسيرته من المعارف والعلوم التى لايستطيع عقله أن يستقل بإدراكها ..

● ودعوةً له كى يغوص فيما لا تدركه حواسه ، مما سكتت هذه الرسالات عن تفصيل خبره من المغيبات ، ومن الأحكام التعبدية .

فهى إذاً عوالم وميادين للمعرفة .. وهى أيضاً ، سبل متعددة لتحصيل المعارف اليقينية ، يؤمن بها الإنسان المسلم ، بحكم إيمانه الدينى ، وليس فقط عالم الشهادة ولا الحواس الإنسانية ، هى مصادر وأدوات المعرفة الحقة ـ كما فى « الوضعية ـ المادية » عند المفكرين الغربيين ـ ..

إن الإنسان المسلم ، بحكم إيمانه بتعدد عوالم هذا الكون وهذا الوجود .. وبحكم إيمانه بالكثرة والتعددية ، التى لا تستطيع كبشر حصرها فى أمم المخلوقات وجماعاتها فى هذا الوجود ، وبحكم إيمانه بالتكليف والمسئولية التى ترتبت على حمله الأمانة ـ كخليفة عن الله ـ الأمر الذى يقتضى حساباً وجزاء ، تنتفى بهما « العبثية » عن هذا الوجود ... إن هذا الإنسان ـ بحكم ذلك الإيمان ـ لايقف بتطلعاته المعرفية عند عالم الشهادة هذا ، وإنما يتطلع أيضاً ، إلى ما

وراء هذا العالم ، ويتلمس معارف لا تحتملها حواسه وحدها ولا تستقل بإدراك حقائقها .. وهو يشعر ، بسبب من تجاوزه إطار الدنيوية المحدود ، بأن سعادته -الدنيوية والأخروية - مرهونة بتكامل معارفه- ولو على نحو ما - عن الكثير من ميادين المعرفة ومصادرها ... وهنا تأتى الرسالات السماوية بما تقدم من مصادر للمعرفة غير مادية لتلبى تطلعات هذا الإنسان ..

تلك هى المنطلقات الإيمانية التى جعلت للمذهبية الإسلامية فى مصادر المعرفة نهجا متميزاً عن ذلك الذى ساد لدى المفكرين الوضعيين الغربيين ..

ولذلك وجدنا هذه المذهبية الإسلامية لا تقف بمصادر المعرفة عند « المنهج التجريبى» وحده .. إنها لم تهمله ولم تغض من شأنه ولا من شأن ثمراته المعرفية ، بل إنه أحد أبداعات حضارتها الإسلامية ، فيها تبلور ، وأعطى ثمراته ، قبل أن ينتقل ويتطور لدى الغربيين ... إنها لاتهمله ، ولكنها لا تقول بوحدانيته كسبيل للمعارف الإنسانية اليقينية .. وإنما هى تعتمد معه :

أ. المنهج الاستنباطى :

ذلك الذي يستنبط به الإنسان من الجزئيات المادية معارف تقطع بضرورة وجود غير مادى ..

إن العقل المسلم عند ما ينظر فى آيات الكون ، وظواهره المادية ،

والنظام المحكم الذى يحكم كل من وما ، فيه لا تقف معارفه المستنبطة عندما هو مادى منها ، تستقل حواسه بإدراكها ، وإنما هو يدرك ، يقينا ، ضرورة وجود غير مادى ، مفارق لهذا العالم المادى هو الذى منحه الوجود والنظام والانتظام . .

ب. المنهج التاريخى :

الذى يستدل به الإنسان ، بواسطة التواتر النقلى ، على وجود مادى تاريخى لم تشهده حواسه ، ومع ذلك فإن هذه الحواس تبلغ فى التصديق بوجوده مرتبة اليقين . .

جـ. المنهج السمعى :

ذلك الذى يكون الوحى الإلهى - البلاغ القرآنى - والسنة النبوية - البيان النبوى لهذا البلاغ القرآني - مصدر علومه ومعارفه . . فبهذا المنهج السمعي يدرك الإنسان المعارف المتاحة عن عالم الغيب - غير المادى - والذى يستحيل إدراكه بالأدوات المادية للإدراك . . كما يدرك المعارف التى تعين العقل على إدراك ما لا يستقل بإدراكه ، وتساعد الحواس على وعى ما لا تنفرد بوعيه . . .

وليس أمر هذه المعارف - التى تتحصل للإنسان بالمنهج السمعى - ليس أمرها فى الصدق واليقين بأقل ما يكون الحال عليه في معارف المنهج التجريبى ، كما حسب ويحسب ذلك

الغربيون الذين رأوها « خيالا - وميتافيزيقا » لا ترقى إلى مرتبة اليقين . . . ليس أمر هذه المعارف وحظها من اليقين على هذا النحو من التواضع والتدني . . بل إن الأمر ربما كان على النقيض من تصور الغربيين لهذا الموضوع . . موضوع يقينية المعارف المتحصلة بواسطة المنهج السمعي . .

فالمنهج السمعي ، إذا اكتملت مقومات الثقة بمصادر معارفه ، واجتمعت شروط الصحة لمأثوراته ، رواية ودراية ، كان اطمئنان العقل المؤمن للمعارف المتحصلة بواسطته أكبر من تلك المتحصلة بحواس الإنسان . . إذ فارق عظيم وأكيد بين خبر مصدره صاحب العلم المطلق والمحيط وبين خبر مصدره علم العالم المحدود القدرة والإمكانات . . وفارق عظيم بين خبر المعصوم وخبر الخطاء!

ولقد يتساءل الذين يشككون في هذه الحقيقة :

أنى للإنسان الذي يدرك بالحواس المادية ، ويعقل بعقله ، أن يتيقن بمعارف مصادرها غير مادية ، ولا تستطيع الأدوات المادية للإنسان أن تختبر صدقها وتتحقق من درجة يقينها؟؟ . .

وألا يكون تكليف الإنسان - وهذا حاله - بالتصديق اليقيني بمعارف لاتستطيع أدواته المادية اختبارها ، لونا من ألوان « التكليف بما لايطاق » ؟! . .

قد يتساءل الذين يتشككون فى هذه الحقيقة هذا التساؤل ، الذى يبدو مستكملاً «الشكل المنطقى» !... ولكننا ننبه على أن المعرفة بالمنطلقات الإيمانية الإسلامية تنفى وجود الحاجة لهذا التساؤل من الأساس ...

ذلك أن المسلم يدرك حقيقة وجود إله - غير مادي - خالق لهذا العالم ، وقائم على رعايته ... يدرك ذلك بالعقل الناظر فى «الصنعة» و«المصنوع» وفى آيات الوجود وكتاب الكون المادى المفتوح ... فبالاستنباط العقلى يؤمن المسلم بالله المستجمع للكمالات المطلقة والقدرات المطلقة .. وبما أن رعاية الخالق لمخلوقاته هى بعض من كمالات هذا الخالق ، كان اللطف الإلهى ، المتمثل فى الرسل والرسالات السماوية ، هداية للإنسان ، وتصويباً لخطاه على درب الخلافة ، وإعانة لعقله وحواسه على إدراك الضرورى من المعارف التى لا تستقل قدراته بإدراكها ولا ينفرد عقله بعقلها ... إذن ... فمصادر هذه المعارف السمعية ، التى نتلقاها بالمنهج السمعى ، لايقل فى المعقولية عن المصادر المادية للمعارف المستفادة بالمنهج التجريبى ، لأن هذه المصادر الغيبية هى مصادر معقولة ، عقلها الإنسان العاقل بالمنهج الاستنباطى ، فليست هى من «الميتافيزيقا» واللخيال «الغريبين عن العقل وبقينه كما يحسب الوضعيون الغربيون ... فإذا توفرت للأخبار السمعية شروط الصدق ، رواية ودراية ، بعد أن رأينا توفر معقولية مصادرها ، رغم لاماديتها ورغم غيبيتها ، فإنها تكون قد استجمعت وامتلكت

كل شروط اليقين الذى يتطلع إليه العقل الإنسانى ويتطلبه فى المعارف اليقينية ..

تلك هى منطلقات المذهبية الإسلامية فى النظر إلى مناهج المعرفة ، وذلك هو طريقها المتميز فى اعتماد المنهج السمعى واحداً من المناهج التى تثمر المعارف الصادقة واليقينية فى النسق الفكرى الذى ساد فى حضارة الإسلام .... وبهذا المنهج غدت السنة النبوية - ومن قبلها القرآن الكريم - مصادر للمعرفة ، والمعرفة اليقينية ، فى مذهبية الإسلام .



القرآن والسُّنّة . . أو . . البلاغ . . والبيان

القرآن الكريم ، هو كلام الله ، ووضعُه ، وكتابه الذى أُحكمت آياته ، وبلاغه المبين ، على لسان رسوله محمد بن عبدالله ، ﷺ إلى العالمين . . هو وحى الله إلى رسوله ومعجزة التحدى وآية صدق هذا الرسول . . وهو ، بمقاييس أرقى مستويات المنهج السمعى ، المصدر الذى لا يدانيه سواه ، إن فى الإعجاز المتحدى ، أو فى الحجية المعجزة ، أو فى توثيق الرواية ، أو فى عقلانية الدراية ، أو فى التعهد الإلهى له بالحفظ ، وبعدم تبديل ما فيه من كلمات ، وبالقطع بأن الباطل لا يأتيه من أى اتجاه .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] . . ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾[2] . . ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[3] . . ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا

---

(١) «الحجر : ٩» .
(٢) «يونس : ١٥» .
(٣) «يونس : ٦٤» .

مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا (٢٧)﴾[1] .. ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز (٤١) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٤٢)﴾[2].

ولقد كان تطاول القرون - التي اقتربت من الخمسة عشر حتى الآن - شاهدا على صدق هذا الوعد الإلهي بالحفظ وعدم التبديل، ونفي الباطل، ومعجزا جديدا، ودائما يشهد على أن هذا القرآن الكريم بالغ، في مصادر المعرفة، أعلى درجات الصدق والثقة واليقين .. وذلك فضلا عن دلائل صدقه المستمدة من أدلة إعجازه الأخرى، التي لا مجال للحديث عنها في هذه الإشارة، بهذا المقام.

ولقد كانت مهمة الرسول ﷺ وهو الذي بلغت دعواه الرسالة بهذا القرآن المُعجز قمة اليقين المعرفي .. كانت مهمة الرسول:

أ - **البلاغ لهذا القرآن الكريم**: وهي مهمة جاء الأمر بها في كثير من آيات هذا القرآن، بلفظ «البلاغ» ومشتقاته، وبألفاظ أخرى تحمل ذات المضمون .. مضمون إبلاغ هذا القرآن الكريم إلى العالمين .. ولقد نهض رسول الله ﷺ بهذه المهمة، فبلغ الرسالة، وأشهد على ذلك الله والناس أجمعين .. ﴿يا أيها الرسول بلغ ما

---

(١) الكهف: ٢٧.
(٢) فصلت: ٤١، ٤٢.

أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾(1).

ب- والبيان لهذا البلاغ القرآني: وذلك بتفصيل مجمله.. وتفسير إشاراته.. والبسط لكلياته.. والتخصيص لعامه.. والتقييد لمطلقه.. ووضع الضوابط المعينة على التمييز بين محكمه ومتشابهه.. وأيضًا بتوقيت الشعائر والفرائض والمناسك، وبيان مقاديرها وشروطها وأركانها وأنصبتها ومصادرها ومصارفها وهيئاتها.. إلخ.. إلخ.. ثم صياغة المقاصد الشرعية الكلية قوانين تحكم واقع الأمة وعلاقات أبنائها، وتصبغهما بصبغة الله.. إلخ.. إلخ.

تلك كانت المهمة الثانية من مهام الرسالة: مهمة البيان للبلاغ القرآني.. ولقد أنجزها الرسول ﷺ، وكان فيها القائم بما فرضه عليه الله: ﴿ ... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾(2).. ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾(3).

جـ- والتجسيد العملي للرسالة الإلهية: عقيدة وشريعة وقيمًا وأخلاقًا، التجسيد العملي لها، بالتجربة النبوية، والتطبيق النبوي

(1) «المائدة: ٦٧». (2) «النحل: ٤٤».
(3) «النحل: ٦٤».

لمعالم المنهج الإسلامى ، والذى وضع الفكر القرآنى فى الممارسة والتطبيق ، وأحال المنهج الربانى بناء معاشًا فى الحياة ، تخلقت من حوله إبداعات المسلمين ، المصطبغة بصبغته الربانية ، فى شكل علوم وفنون ، وأبنية مدنية ، هى تلك التى مثلت حضارة الإسلام .

فالإسلام لم يقف ، فى الرسالة المحمّدية ، عند حدود البلاغ القرآنى ، ولا البيان النبوى النظرى لهذا البلاغ القرآنى ؛ لأنه لم يكن مجرد مذهب ، أو نحلة فكرية ، أو وصايا يودعها الرسول أمانة لدى عدد من الحواريين .. وإنما كان ، عبر التجربة النبوية ، بناء حياتيا معاشًا ، فى الممارسة والسلوك والدولة والعلاقات .. لقد غدا صبغة الله التى صبغت الواقع والأمة والفكر والحضارة .. فكان القرآن - البلاغ - الذى جسدته السُّنَّة النبوية - بالبيان النظرى والتجسيد التطبيقى - كيانًا حيا يحيا به المسلمون ، ويحيا فى هؤلاء المسلمين !

تلك هى السُّنَّة النبوية ، فى مفهوم كاتب هذه الصفحات ، وتلك هى مكانتها - كمصدر للمعرفة - من القرآن ، أول وأوثق مصادر المعرفة السمعية اليقينية فى حياة الإسلام والنسق الفكرى للمسلمين .

ولذلك ، فإنه بحكم شمول البلاغ القرآنى لشئون عالمى الغيب والشهادة ، وجمعه للمبادئ والكليات والوصايا والتوجيهات

والضوابط الهادية والموجهة والمرشدة والحاكمة لكافة مناحي الحياة الإنسانية.. ووفائه - باعتباره كتاب الرسالة الخاتمة والخالدة - بالإجابة على علامات الاستفهام الإنسانية: عن البدء.. والحكمة.. والتاريخ.. والواقع.. والمستقبل.. والمنتهى والمصير.. وعن المعايير في كل ذلك.. بحكم شمول البلاغ القرآني ووفائه - كمصدر المعرفة الإسلامية الأول - لكل هذه العوالم والميادين.. كانت السُّنَّة النبوية - بحكم كونها البيان العملي - في الفكر والتطبيق - لهذا البلاغ القرآني، مصدرًا للمعرفة اليقينية في كل ميادين ومناحي هذا البلاغ القرآني.

إن السُّنَّة - في عُرفنا اللغوي: هي الطريقة.. وفي عُرفنا الشرعي: هي ما صدر عن رسول الله ﷺ غير القرآن - من قول - هو الحديث - أو فعل أو تقرير.

ومع صدق ودقة هذا التعريف.. فإن مقاصد هذا البحث، تجعل لتعريف السُّنَّة هنا أبعاداً تتسق مع هذه المقاصد، فنراها: منهج النبوة «النظري - والعملي»، الذي جسَّدَ البلاغ القرآني، وأحال كلمات الله واقعًا وحضارة يحياهما الناسُ الذين آمنوا بهذا البلاغ.. ومن هنا تأتي مكانتها كمصدر للمعرفة، تستمد صدقها - بعد اجتماع شروط الصدق في الرواية والدراية - من صلتها بالقرآن الصادق بالإعجاز.. إن إطار هذه السُّنَّة - كبيان للبلاغ القرآني - يحتم أن يكون لها في هذا البلاغ معنى أو مبنى، وهي

بذلك قد غدت وتغدو المصدر النبوى لبيان البلاغ الإلهى ، بلاغًا كان هذا البيان النبوى أو اجتهادًا نبويًا أقره بلاغ القرآن .

وبهذا المعنى لعلاقة السُّنَّة النبوية بالقرآن الكريم . . وفى إطار موقف المذهبية الإسلامية من المنهج السمعى ، فإن المسلم يلتمس فى هذه السُّنَّة ومنها - كمصدر للمعرفة :

أ - مصدرًا لمعرفة أسباب نزول البلاغ القرآنى والوحى الإلهى على رسول الله ﷺ . . بما يمثله ذلك من علم لتفسير القرآن ، ووعى بحكمة التشريع ، وعون على مواكبة هذا التشريع للتطور عبر الزمان والمكان .

ب - ومصدرًا لمعرفة التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى والحربى والأدبى للتجربة الإسلامية فى عصر صدر الإسلام ، وهى التى حوّلت البلاغ القرآنى والبيان النبوى إلى كيان اجتماعى حى ومجتمع إنسانى وبناء حضارى معاش .

جـ - ومصدرًا «للفروع» التى وقف القرآن عند أصولها ، ومنها نتعلم التمييز بين الثوابت والمبادئ والأركان والأصول وبين الفروع والمتغيرات ، التى تقوم وتنمو وتتجدد على هذه القواعد والأصول ، مرتبطة بها ، ومصطبغة بصبغتها ، وفى ذات الوقت مظللة لمساحات جديدة من الوقائع والمشكلات .

د - ومصدرًا لأبنية وهياكل الدولة الإسلامية التى أقامها

المسلمون لحماية الدعوة ونصرتها.. وهى التى - مع ما يماثلها - تمثل نماذج «للواجبات المدنية» التى اقتضتها «الفرائض الدينية»، فاكتسبت صبغة الواجبات الإسلامية وأهميتها، حتى دون أن يرد التشريع لفريضتها صراحة فى البلاغ القرآنى.

هـ - ومصدرًا للتشريع النبوى والتراث القانونى فى السُّنَّة، سواء ما كان منه التفصيل لمجمل القرآن، أو ما كان منه اجتهادًا فيما لا وحى فيه.. وهى كذلك، المصدر للتمييز فى هذا الاجتهاد النبوى بين ما أقره الوحى، بالنص عليه أو بالسكوت عنه، وبين ما نزل الوحى مصوبا له أو معدلا.

و - ومصدرًا للتمييز - فى الممارسات النبوية - بين «الدين - الثابت»، الذى يجب فيه الاتباع للمنطوق والمفهوم، وبين «المتغيرات - الدنيوية»، التى يجب فيها التزام المقاصد دون حرفية التطبيقات.. وأيضًا التمييز بين «الدين - الثابت» وبين المتغير من الأعراف والعادات.

ز - ومصدرًا للتمييز بين ما لا يستقل العقل بإدراكه - من حيث الحُسن والقُبح - وفى التشريع والأحكام والفرائض والشعائر.. وفى كيفية الجزاء، ومقادير الثواب والعقاب.. وبين ما هو من شئون الدنيا، الموكولة إلى عقول البشر، لقدرتها على أن تستقل بإدراكها - حسنًا وقُبحًا - وعلى أن تقنن لها فى إطار شرع الله.

كل هذه المعارف - وغيرها مما ماثلها كثير - تنهض السُّنَّة النبوية، في النسق الفكرى الإسلامى، ووفقًا لقواعد المنهج السمعى، مصدرًا للمعرفة اليقينية في ميادينها .. بل إن صحيح هذه السُّنَّة، الذى اجتمعت له شروط الصدق - من حيث الرواية والدراية - هو كنز للمعارف الإسلامية، شديد الغنى وعظيم الثراء وجمّ الفوائد، كان ولا يزال وسيظل المنبع للصورة المكتملة الملامح لمنهج النبوة الربانى، في تطبيقاته الحياتية الحية .. وهو المنهج الفاعل في أى جهد جاد من أجل الإحياء والتجديد والتقويم لحياة الأمة، عندما تتراجع تصوراتها وتطبيقاتها عن معايير ومعالم هذا المنهج، فتعدو على إسلامية فكرها وواقعها عوامل الإنحراف.

هنا، تصبح السُّنَّة، الكاشفة عن معالم منهج النبوة، مصدرًا غنيًا للمعرفة المجددة لفكر الإسلام ولواقع المسلمين.

هذا عن مكانة السُّنَّة النبوية كمصدر للمعرفة في منهج الإسلام.

* * *

نماذج شاهدة

وإذا شئنا نماذج شاهدة - أو على الأقل أمثلة لها - تؤكد صدق الذى ذهبت وتذهب إليه هذه الصفحات، فإننا واجدون فى عوالم المعارف التى ضمنتها السُّنَّة النبوية، المتواترة والمشهورة، والتى تجسدت فغدت واقعًا تعيشه الأمة وتمارسه منذ عصر صدر الإسلام وحتى الآن وإلى ما شاء الله.. إننا واجدون فى عوالم معارف هذا المصدر النبوى ما يشهد على أن هذا هو مكانها من عوالم معارف المصدر الإسلامى الأول: القرآن الكريم.. مكان «البيان النبوى» من «البلاغ الإلهى».

وعلى سبيل المثال:

- فالقرآن الكريم يشير إلى قضية «بدء الخلق»، ذلك الذى تفرد به الله سبحانه وتعالى، وجاءت إشارات القرآن لتتحدى به الطواغيت وعبدة غير الله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[1].. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[2].. ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ

(١) «العنكبوت: ٢٠».

(٢) «السجدة: ٧».

يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴾[١] .. كما يتحدث القرآن الكريم عن أن أحدا من هؤلاء المكذبين لم يشهد «بدء الخلق» حتى يكون له علم به أو فيه: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾[٢].

وإذا كانت هذه الإشارات القرآنية إلى «بدء الخلق» هي اليقين المتاح للمعرفة الإنسانية عن هذا الأمر الذي لم يشهده سوى الخالق سبحانه وتعالى .. فلقد مثلت السنة النبوية مصدر المعرفة الذي أتاح لنا طرفا من الحديث والعلم عن صورة الإنسان الذي خلقه بارئه في أحسن تقويم .. ففي «البخاري» من حديث عمران ابن حصين يقول الرسول ﷺ: «كان الله، ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض ...». وفيه كذلك من حديث عمر: «قام فينا النبي ﷺ مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه».

---

(١) يونس: ٣٤. وانظر كذلك: الأعراف: ٢٩، والأنبياء: ١٠٤، ويونس: ٤، والنمل: ٦٤، والروم: ١١، ٢٧، والعنكبوت: ١٩، والبروج: ١٣.

(٢) الكهف: ٥١.

فمن هذا المصدر النبوى ، وتبعًا للمصدر القرآنى عرفنا ونعرف طرفًا من خبر بدء الخلق ، الأمر الذى أتاح لنا تصور الجلال الذى اختصَّ به ، مثلاً ، خلق الإنسان ، حتى لقد أمر ملائكته بالسجود له .. بينما وجدنا هذه الصورة ، لدى العلم الغربى ، الذى رفض المنهج السمعى ، هى صورة الحيوان البدائى والهمجى!

● وتاريخ ما لم يسجله ويحفظه التاريخ ، ذلك الذى بادت آثار أهله ومعالم مجتمعاتهم ، أو سبقت حقبة قدرة الإنسان على صنع الآثار الباقيات .. هذا التاريخ عن الأمم السابقة والحضارات البائدة .. نجد عنه وعن أممه إشارات فى القرآن الكريم .. من ذى القرنين إلى عاد وثمود وأهل مدين ، وقرى ومواطن وأخبار الأنبياء والرسل السابقين .. وإذا كانت هذه «الإشارات التاريخية» هى القدر المتيقن من ذلك التاريخ ، فإننا واجدون فى السُّنَّة النبوية طرفًا من المعارف فيها بعض التفصيل لما فى البلاغ القرآنى من إشارات لذلك التاريخ .

● وواقع الجاهلية التى أخرج الإسلام أهلها من ظلماتها إلى نور الإسلام- وهو واقع جماعة بشرية غلبت عليها الأمية ، فكانت فقيرة فى أدوات التدوين لتاريخ مجتمعاتها - هذا الواقع الجاهلى- فى عاداته وتقاليده وأعرافه .. فى أديانه وأوثانه ومناسكه .. فى تشرذمه القبلى وعلاقات قبائله مع جاورهم من الدول والشعوب .. فى مكانة المرأة به ، وأنواع الزواج وعلاقات الرجال بالنساء .. فى الحلال والحرام .. فى أنماط الإنتاج وعلاقات

ومصادر الارتزاق.. إلخ.. إلخ.. هذا الواقع الجاهلى، والذى لا سبيل إلى فهم عمق الطور الإسلامى وجذور الإنجاز الإسلامى إلا بتصوره، باعتباره ميدان هذا الإنجاز، والسبب فى مجىء البناء الحضارى الإسلامى على هذا النحو الذى جاء عليه.. هذا الواقع الجاهلى لن نجد مصدرًا من مصادر المعرفة والتعريف له أغنى من سُنَّة النبى، عليه الصلاة والسلام.

● وهذا التجسيد الذى صنعه البيان النبوى للبلاغ القرآنى، والذى ميز رسالة محمد ﷺ عن كثير من رسالات الرسل الذين سبقوه على درب اتصال السماء بالأرض.. هذا البيان الذى جعل الرسالة: أمة ودولة ومجتمعًا ونظامًا وحضارة، اهتدت بالمنهج الربانى، واصطبغت بصبغة الله.. ليس كالسُّنَّة النبوية ديوانًا جامعًا لمعارفه وللتعريف بحقائقه اليقينية - قبل أن تغبشها قصص القصاصين ومدائح المادحين التى امتلأ بها التاريخ الأول لمجتمع صدر الإسلام. فيها معارف وصف واقعه، ونصوص دستوره وقانونه، وعاداته وأعرافه.. وفيها صور نشاط إنسانه فى كثير من ميادين الحياة، الخاصة منها والعامة.. وفيها أوفى وصف لدولة الإسلام الأولى: رعيتها، وحدودها، وطرائق العيش وسبل التكسب فيها.. وغزواتها وفتوحاتها، وفنون قتالها، وما حدث فيها من انتصارات وانتكاسات.. وفيها سجل

العلاقات الدولية ، والمعايير التى حكمتها .. ففى هذه السُّنَّة النبوية ، قبل غيرها ، وأكثر من غيرها - بل وربما دون غيرها - سنجد ديوان المعارف ومصدرها ، الذى نعرف به ونغترف صورة الحضر والبيد .. وماذا كانت تعنى الهجرة فى التطور من التعرب والبداوة إلى التمدن والحضارة .. وكيف كانت الشورى ، وبدايات مؤسساتها .. والتراتيب الإدارية .. والكتاب والتراجمة والمكاتبات .. والولاة والولايات والعمالات .. والصورة الأدق والأصدق للمرأة كما أرادها وصنع نموذجها الإسلام .. والأموال والخراج .... إلخ .. إلخ .. فهى فى هذه الميادين ، وما ماثلها ، أوثق وأغنى مصادر المعرفة للقارئين والباحثين على السواء .

● وإذا كان البلاغ القرآنى قد حدد مكانة الرسالة الخاتمة الخالدة فى عقد الرسالات الإلهية للبشر .. مكانة المصدق فى الاعتقاد الدينى الواحد - أزلاً وأبداً - والمهيمن فى الشريعة المتغيرة باختلاف أمم الرسالات :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾[1] ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من

---

(١) الشورى : ١٣ .

الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[1].

إذا كانت هذه هي مكانة الرسالة الخاتمة، عقيدة وشريعة، من عقد الرسالات السماوية وسلسلتها، فإن في السنة النبوية - وهي البيان النبوي لهذا البلاغ القرآني - الكثير من المعارف التي نستطيع أن نلتمسها حول هذا الموضوع.

ففي حديث أبي هريرة ﷺ يقول رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون منه ويقولون: ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلا موضع هذه اللبنة، فكنت هذه اللبنة»[2].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ - أيضا - يقول الرسول ﷺ: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق»[3].

بل إننا لواجدون في التطبيقات النبوية التي جسدت علاقات

---

(١) «المائدة: ٤٨».

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والإمام أحمد والإمام مالك في «الموطأ».

(٣) رواه مالك في «الموطأ».

المسلمين بأهل الكتاب، في داخل المجتمع الإسلامي الناشئ والدولة الإسلامية الوليدة. ومع الدول والمجتمعات الكتابية المحيطة - وهي - هذه التطبيقات- جزء من السُّنَّة النبوية - إننا واجدون فيها كنزًا غنيا من المعارف، لا سبيل إلى التماسها في مصدر آخر من مصادر هذا الباب وذلك التاريخ.

● وإذا كان البلاغ القرآني يعلمنا - ضمن ما يعلمنا- المذهب الإسلامي المتميز في أمر السنن والقوانين المودعة في ظواهر الطبيعة وحقائق الوجود.. وهو المذهب الذي يعترف بفعل السنن والقوانين في المسببات المتولدة عنها، مع الإيمان بأن هذه السنن والقوانين - مثلها مثل الظواهر والقوى التي أودعت فيها - جميعها مخلوقة لمن خلقها وخلق فيها هذه السنن والقوانين الفاعلة.. ففعلها المنظم والمطرد هو خلق الله وإرادته، وله سبحانه القدرة على إيقاف وخرق الاطراد المعتاد لعمل هذه السنن والقوانين إذا أراد إظهار إعجاز يؤيد به رسولاً أو يتحدى به من لا يخصونه بالألوهية والربوبية.

هذا ما يعلمنا إياه البلاغ القرآني عندما تشير آيات منه إلى سُنَن الله في الكون والوجود والطبيعة والإنسان والمجتمعات.

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٥) ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون

وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[1] .. ﴿ .. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾[2] .. ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (٥٨) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[3] .. ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾[4] .

تلك بعض من آيات البلاغ القرآني التي أشارت إلى بعض من سنن الله في الجماعات والمجتمعات .. وعلى هذا الدرب نجد السنة النبوية كنزا للمعارف التي تغني الفكر الإنساني في هذا الميدان ..

«ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنا في قوم إلا وكثر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشى فيهم الدم ، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو»[5] ..

---

(١) «القصص : ٥ ، ٦» .	(٢) «الأعراف : ١٢٨» .

(٣) «القصص : ٥٨ ، ٥٩» .	(٤) «الإسراء : ١٦» .

(٥) رواه الإمام مالك في «الموطأ» .

«لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يد الظالم، ولتأطُرُنَّهُ على الحق أطْرًا، أو ليضربنَّ الله بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يُستجاب لكم»[1] ... «إذا رأيتم الظالم فلم تأخذوا على يديه يوشك الله أن يعمكم بعذاب من عنده»[2] ... «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[3] ... «لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء، ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتي الله، تبارك وتعالى، بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء، ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره»[4] ... سأل حذيفة بن اليمان رسول الله ﷺ: «يا رسول الله: أيكون بعد الخير الذي أُعطينا شر، كما كان قبله؟

- فقال ﷺ: نعم!

- قال حذيفة: فبمن نعتصم؟

- فقال ﷺ: بالسيف[5]!».

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود والإمام أحمد.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) رواه الإمام أحمد.

(٥) رواه أبو داود والإمام أحمد.

«إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له : إنك أنت ظالم ، فقد تُوُدِّعَ منهم[1]» . . ومن حديث ثوبان - مولى رسول الله - ، يقول ﷺ : «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها** . قال : قلنا : يا رسول الله أمِنْ قِلَّة بنا يومئذ؟! . قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن . قال : قلنا : وما الوهن؟! قال : حب الحياة وكراهية الموت»![2] . . «من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى وبرئ الله تعالى منه ، وأيما أهل عرصة[3] أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى»[4] . «مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر . فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»[5] .

تلك أمثلة على أطراف من المعارف التي مصدرها السُّنَّة النبوية . . معارف السُّنَن والقوانين التي أقامها الله وأودعها في الجماعات والمجتمعات والاجتماع .

- وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الإنسان خليفة في

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه أبو داود والإمام أحمد .

(٣) العرصة : الساحة والفضاء الذي تحتفه وتجاوره المساكن .

(٤) رواه الإمام أحمد .

(٥) رواه الإمام أحمد .

استعمار هذا العالم الذى يعيش فيه، وعلى امتداد الآفاق التى يبلغها سلطانه.. وإذا كان البلاغ القرآنى قد حث هذا الإنسان على النهوض بمهام الإعمار هذه، فتحدثت آياته قارنة الإيمان العامل بالعمل المؤمن، على نحو كاد أن يكون دائمًا.. ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٩) فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾[1].. ﴿فإذا فرغت فانصب (٧) وإلى ربك فارغب﴾[2].

إذا كانت هذه هى إرادة الله، وهذا هو حديث البلاغ القرآنى عن عمارة العالم الإنسانى بالإيمان العامل والعمل المؤمن، فإن البيان النبوى - السُّنَّة- زاخرة بالمعارف التى تمثل الزاد الذى لا ينفد فى هذا الميدان.. فأحاديث العمل.. والمأثورات التى قننت لإحياء الأرض وعمارتها.. هى مما لا يتسع له المقام.. بل إن تجربة البناء الاجتماعى والاقتصادى لدولة الإسلام الأولى هى التجسيد العملى لهذا البيان النبوى فى هذا الميدان.. وفى حديث أبى هريرة، يقول ﷺ: «خير الكسب كسب يد العامل إذا

(١) «الجمعة: ٩، ١٠».
(٢) «الشرح: ٧، ٨».

نصح»[1] .. بل إن تعظيم العمل الإنسانى يبلغ فى السُنَّة النبوية المقام الذى يتحدث عنه حديث الرسول ﷺ ، الذى يرويه أنس ابن مالك : «إذا قامت الساعة ، وبيد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[2] !

تلك إشارة إلى زاد المعارف التى تقدمها لنا السُنَّة ، كمصدر للمعرفة فى هذا الميدان .

• وإذا كانت العقيدة الإسلامية تأبى «العبثية» التى ترى فى هذه الحياة الدنيا نهاية المطاف بالنسبة للحياة والأحياء .. وتجعل من الإيمان بالبعث والحساب والجزاء ، فى اليوم الآخر ، ركنا من أركان الإيمان .. وإذا كان البلاغ القرآنى قد أشار إشارات عديدة إلى «البعث» فى معرض إقامة الحجة على منكريه : ﴿ وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾[3] .. ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[4] .. ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾[5] .. ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله

---

(1) رواه الإمام أحمد .
(2) رواه الإمام أحمد .
(3) «الأنعام : 29» .
(4) «التغابن : 7» .
(5) «لقمان : 28» .

وأيمانهم ثمنا قليـلا أولئك لا خـلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[1].

إذا كانت تلك إشارات إلى حديث البلاغ القرآنى عن «البعث» وخبره. فإن معارف السُّنَّة النبوية عن أنباء «البعث» وصورة وأحوال الناس فيه، هى المصدر الذى يجد فيه المسلم ما يقرب صورة هذا الغيب، على نحو ما، إلى العقل المحدود لإنسان عالم الشهادة، الذى تتوجه إليه الرسالة الإلهية بالبلاغ وبالبيان.

ففى حديث أبى ذر، يقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المُسْبِل[2]، والمنّان، والمُنفّق سلعته بالحلف الكاذب»[3].. كما نعلم، أيضا.. «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه»[4]!

هذا إلى ما ضمّت كنوز السُّنَّة من صور تقرّب للذهن الإنسانى، قدر الإمكان، أحوال النفخ فى الصور.. وأحداث ما بين النفختين.. وصورة الحشر.. ومكانه.. وصورة الناس فيه.. والحساب.. والميزان.. والجزاء.. والشفاعة.. ومن يُظلّهم الله يوم

---

(١) «آل عمران: ٧٧».

(٢) «المُسْبِل» بضم الميم وسكون السين وكسر الباء: المرخى إزاره، وجاره طرفه كبرا وخيلاء.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الدارمى.

لا ظلَّ إلا ظله .. إلخ .. إلخ .. إلخ .. وغيرها من المعارف المقربة والميسرة والمفسرة لإشارات البلاغ القرآني لهذا العالم الذي يستحيل على العقل البشري إدراك كنه حقائقه، كما تستحيل على لغة البشر أن تكون وعاء يفي بحمل ما في أنبائه من مضامين.

تلك أمثلة لنماذج شاهدة على السُّنَّة النبوية كمصدر من مصادر المعارف السمعية في النسق الفكري للإسلام .. ومع أننا وقفت عند حدود الأمثلة - مراعاة للمقام والحيز - فإنها شاهدة على صدق وفاء السُّنَّة النبوية بهذه المهمة في فكر الإسلام وفي حضارة المسلمين.

❁ ❁ ❁

وأخيرًا

فإن التماس الإنسان المسلم المعارف العديدة، من المصادر والميادين المتعددة، بواسطة السُّنَّة النبوية، إنما يفتح للعقل الإنساني الجديد والعديد من الآفاق، وذلك دون أن يحد من قدرات وإمكانات وآفاق هذا العقل أو يقيد من طموحاته.. بل إن هذا النهج الإسلامي، الذي لا يقف - كالنهج الغربي عند المنهج الحسي التجريبي- إنما يقوم - مع تهذيب غرور العقل- بتوجيهه إلى الميادين الحقيقية التي تأهل لأن يبدع فيها، وذلك عندما يعلمه حقيقة عجزه عن الاستقلال بإدراك معارف عالم الغيب.. وكأنه - المنهج الإسلامي- يذكر العقل بالحقيقة الخالدة التي تقول: كل ميسر لما خُلق له!

كذلك، فإن هذا المنهج الإسلامي، الذي يجعل البلاغ القرآني، وبيانه النبوي: مصدرًا للمعرفة اليقينية في ميادين عديدة -يكون في بعضها: مجرد حافز للعقل على النظر، وحافظ له من تجاوز الحدود.. ويكون في بعضها: المعين والمؤازر.. ويكون في أخرى: المصدر الوحيد لمعرفة ما لا قِبَلَ للعقل بالخوض فيه.

إن هذا المنهج المتميز هو المحقق: تكامل المعرفة الإنسانية، وذلك عندما يحقق للإنسان قدرًا من معارف عالم الغيب، إلى جانب زاده وزاد اجتهاداته من معارف عالم الشهادة.. وهذا التكامل هو الذي يحقق «التوازن المعرفي» للإنسان، على النحو الذي ييسر له

«التوازن السلوكى» . . وبهما – التوازن المعرفى ، والتوازن السلوكى – تتحقق «المعانى» و«الحِكَم» و«العلل الغائية» من وراء خلق الإنسان ، واستخلافه عن الله ، سبحانه وتعالى ، فى عمارة هذا العالم . . فتنتفى – أو تقل – من حياته منغصات وأزمات «العبثية» و«اللا أدرية» و«الطرق المغلقة» ، التى تأخذ بخناقه فى ظل الحضارات المادية ، والتى قادته ودفعته – خارج منهج الإسلام ووسطيته – إلى مستنقعات : «الشهوة الحيوانية» و«اللذة الآنية» و«الأنانية المتعالية» و«النظرة العدمية» تجاه ما وراء عالم المحسوسات . . فلم ينجح التقدم المادى الذى أحرزه فى إنقاذه من القلق والقنوط والإحباط . . حتى لتصدق عليه الآية القرآنية التى تتوعد فتقول : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾[1] . . وحتى لكأنهم دهريو العصر ، القائلون : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾[2] !

هذا هو منهج الإسلام ، العاصم للإنسان من هذا المصير . . به رأينا السُّنَّة النبوية مصدرًا للمعرفة ، تنهض بدورها إلى جانب البلاغ القرآنى فى إثراء معارف الإنسان المسلم ، وإغناء النسق الفكرى لحضارة الإسلام .

---

(١) «المرسلات : ٤٦» .
(٢) «الجاثية : ٢٤» .

الفهرس

إلى القارئ العزيز . .

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث . .

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا
- ا . فهمي هويدي
- د . يوسف القرضاوي
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام
- د . عبد الوهاب المسيري
- د . شريف عبد العظيم
- د . عادل حسين
- د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين . .

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

